

(اللغة والتواصل)

عنوان البحث

لغة التواصل بين

(موسى النبي) والسلطة الحاكمة)

بحث محكم دولي

قدم في المؤتمر الدولي الأول في كلية الإلهيات

جامعة عثمان غازي

تركيا . أسكي شهير



د . عبد القادر منصور

مدرس القرآن والتفسير بكلية الإلهيات

-جامعة عثمان غازي-أسكي شهير

الديباجة

لا يختلف اثنان : أن الإنسان اجتماعي بالطبع، يؤثر ويتأثر ، ولا يمكن أن ينفصل عن مجتمعه، بل هو دائم التواصل، عبر لغة تواصلية يُتفاهم عليها بين طرفين، فتارة تكون نتائجه سلبيةً، وأخرى إيجابيةً، ثم لغة التواصل هذه، مشاربها مختلفة، و أصولها متباينة.

وقصة موسى مع السلطة الحاكمة (فرعون وحاشيته) تحمل في تضاعيف أحداثها أصولاً منهجيةً في لغة التواصل، وكانت سيرورتها عبر محاور، ولكل محور مسلك متأصل المنهج.

فمحور التواصل من الأعلى إلى الأدنى، ويمثله رب العالمين مع رأس الهرم في السلطة الحاكمة(فرعون) بواسطة موسى. ومحور التواصل من الأدنى إلى الأعلى، وله جوهٌ واستراتيجيته الأدبية الخاصة، وأبرزه في الحدث موسى مع الحاكم المطلق فرعون، وكانت النتيجة فيه سلبيةً.

ومحور التواصل بين النظير والنظير ومَن دونه، ويمثله: (موسى والسحرة). وله جوهٌ واستراتيجيته –أيضا- وكانت نتيجته إيجابيةً بامتياز .

Araştırmanın başlığı: (Musa peygamber ile(Dil ve İletişim)
yönetim erki arasında iletişim dili)

Dr. Abdulkadir Mansur

Osmangazi Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Kuran ve tefsir
öğretim görevlisi

Önsöz: Yaratılış bakımından sosyal bir varlık olması, etkilemesi ve etkilenmesi, toplumuyla sürekli iletişim halinde olması, toplumundan kopamaması, bilakis tarafların, sonuçları bazen olumsuz bazen de olumlu olabilen, kaynakları farklı ve temelleri birbiriyle uyuşmayan bir iletişim dili aracılığıyla anlaşmaları bakımından kimse birbirinden farklı değildir.

Musa'nın egemen güçlerle (Firavun ve adamlarıyla) kıssası, her biri köklü yöntem ve tutum merkezine sahip olan eksenler aracılığıyla gidişatını sağlayan olayların ayrıntılarında iletişim dilinin esaslarını barındırmaktadır. Örneğin yukarıdan aşağıya iletişim eksenini Musa vasıtasıyla Alemlerin Rabbi ve hakim gücün zirvesi(firavun) temsil etmektedir. Aşağıdan yukarıya iletişim ekseninin kendine özgü bir yapısı ve özel edebi stratejisi mevcuttur. Bu sonucu olumsuz olan hâkimi mutlak Firavun ile Musa'nın konuşmasında ortaya çıkmaktadır. Denkler veya daha aşağılar arası iletişimi yine kendine özgü yapısı ve stratejisi bulunan ve müstesna olumlu bir sonucu olan Musa ve sihirbazlar temsil eder

المحتويات

İçindekiler

٣	الديباجة
٦	التواصل لغةً واصطلاحاً
٦	لغة التواصل
٦	وظيفة التواصل
٦	هدف التواصل :
٧	أنواع التواصل
٧	١- التواصل اللساني
٧	٢-التواصل المسلكي
٨	درجات لغة التواصل
٨	الأولى: الإعلام أو الإشهار
٩	الثانية: التعبير والبيان
٩	الثالثة: (القناعة والإقناع)
١٠	لغة التواصل بين (موسى وفرعون)
١٠	الأول : التواصل المباشر وجهًا لوجه
١٢	طبيعة التواصل
١٣	الأول : (فرعون)
١٣	و الثاني : (موسى)
١٣	الثقافة والتعبئة المعنوية
١٤	ماهية لغة التواصل : (أسلوب ومضمون)
١٦	(الأسلوب الحكيم)
١٧	(الأسلوب غير الحكيم)
١٨	خطوات التواصل العننية
١٨	الضربة الاستباقية
١٩	السؤال (١)
٢٠	السؤال (٢)
٢١	السؤال : (٣)
٢٢	السؤال (٤)
٢٣	مهابة فرعون إلى أين؟
٢٤	مؤمن آل فرعون والمفاجأة
٢٨	السحرة ، ولغة التواصل
٣١	تهديد المترنح
٣٢	قطف الثمرة

التواصل لغةً واصطلاحاً

فالتواصل لغةً: من (تواصل يتواصل تواصلًا فهو مُتواصل).
وتواصل الشَّخصان وغيرُهما: اجتمعَا، واتَّفقا. وتَوَاصَلَ الصَّدِيقَانِ: واصلَ أحدهما الآخرَ في اتِّفاق، ووثام. وصدَّ التواصل في اللغة: تصارم القوم، وتقاطعوا: هَجَرَ بعضهم بعضًا^١.

واصطلاحاً: "إنشاء علاقة ترابط بين طرفين، مع الاقتران والاتصال والصلة. فالتواصل -إذن- هو حالة من التفاهم المتبادل بين كيانين أو نظامين.

لغة التواصل

ولغة التواصل: هي تشكيلات تواصلية، تتألف من مهارات متنوعة، ومواهب شتى، وتكون بمثابة جسر، يتوصل من خلالها إلى التفاهم بين الخلق، بإيصال معلومات، وأفكار، ومشاعر، وعواطف إنسانية- إما سلبيًا، وإما إيجابًا- وفق استراتيجية تحمل أصولًا، تندمج مع الواقع والعقل والمشاعر.

وظيفة التواصل

وقد يكون التواصل ذاتياً بين (الإنسان ونفسه)- حديث النفس- وهذا هو الأساس. أو جماعياً بين الآخرين، وهو مبنيٌّ على الموافقة أو المعارضة والاختلاف، وأحياناً المعاكسة- كما صنع فرعون مع موسى. وله وظيفتان: معرفية: وهي المتمثلة في نقل الرموز الذهنية، وتوصيلها بوسائل لغوية لفظية وغير لفظية. ووجدانية: تصنع وتقوي العلاقات الإنسانية.

هدف التواصل

لقد أجلت محرك البحث حتى ظفرت بهدف أساس في لغة التواصل، هو العيش في جوِّ اللذة - حلاوةً وخضرةً - دونما تعكير . وخير ما عبر عنه حديث: " فَإِنَّ

^١ ره: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ١٨٣٥) (٣/ ٢٤٤٩)

الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَصِرَةٌ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهَا، وَاحْتَسِبُوا إِلَى اللَّهِ أَعْمَالَكُمْ^١". ومنطلقه (العقل)، فبدونه لا يمكن التواصل بين الشخص ونفسه، وبينه وبين المجتمع. وقد قيل: (بالعقل: تنال لذة الدنيا. لأنّ العاقل لا يسعى إلا في ثلاث: مزية لمعاش، أو منفعة لمعاد، أو لذة في غير محرم^٢)".

وسئل أعرابي: "ما لذة الدنيا؟ فحصرها في ثلاث، منها المحادثة: "ممازحة الحبيب، ومحادثة الصديق، وأمانى: تقطع بها أيامك^٣".

أنواع التواصل

وثمة نوعان في التواصل: لساني ومسلكي. أحدهما يكمل الآخر.

١- التواصل اللساني

ويكون عن طريق اللغة المعبر بها عن المرادات بين شعب واحد أو شعوب، وفي العموم هي اللغة الأم، ويصرح ابن جني في كتابه الخصائص، بأنّ اللغة: (هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)^٤ - وقد تكون بلغات شتى. وماهيتها الاصطلاحية - كما عبر عنها ب: "جملة علامات وإشارات تهدف إلى التواصل، عند اتحاد الدال والمدلول بنيويًا". وأغراضها كثيرة ومتنوعة.

٢- التواصل المسلكي

ويكون بالنظر في السلوكيات غير اللفظية، المتضمن الآثار المعرفية والوجدانية، التي تحدث عبر السلوكيات المألوفة في المجتمع السوي. وهو أحد أهداف التربية المسلكية- عند علماء النفس والاجتماع هذا، وقد سجلت كتب

^١ ره: سنن سعيد بن منصور (٣٨٣/٢) أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، كَتَبَ إِلَى النَّاسِ: " أَمَا بَعْدُ، ...

^٢ ره: العقد الفريد (١١٥/٢)

^٣ ره: الكشكول (١٥٩/٢)

^٤ ره: الخصائص (٣٤/١)

الأدب حكماً متناثرة على ألسنة الأمثال، تحيط بسبل تحصيلها المسلكية، وجسور العبور إليها. سئل رجل: "ما لذة الدنيا؟". فأجاب: (تواصل بعد اهتمجار، وتصاف بعد اكدار^١). فهذا القائل قد حصرها في قناتين: تواصل، وتصاف. وترجم مادياً بالهدية، إذ هي أقوى مطية لتحقيق تلك الجسور. ففي الحديث الحسن: "تَهَادُوا^٢ فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَغَرَ الصِّدْرِ"^٣

فهذه الأقاويل الحكيمة، تكون لغة التواصل قد أصابت اللذة فحققت الهدف.

درجات لغة التواصل

ولن تكون لغة التواصل طلقةً واحدةً، وإنما تمر عبر هيئات ترتيبية، أبرزها بتدرج - كما الآتي:

الأولى: الإعلام أو الإشهار

وهذه الدرجة ذات أهمية كبيرة، لأنها تجهز المتواصل معه نفسياً، حتى يكون أدنى للتفاعل مع المتواصل، وفي هذه الحال تستهدف عملية التواصل في صناعة الوقائع، والانفعال معها، إشراك شرائح المجتمع كلها. كما في قصة موسى مع فرعون وملئه. فقد كان الإشهار من موسى ب: {فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا: إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ^٤}.
ومن قبل فرعون: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى^٥} و{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي^٦}-

^١ ره: ربيع الأبرار ونصوص الأختيار (١/ ٣٨٤) اللطائف والظرائف (٣٠).

^٢ وفي اللغة والرواية يجوز ضم الدال وفتحها.

^٣ مسند أحمد (١٥/ ١٤١) و البخاري في "الأدب المفرد" (٥٩٤) بلفظ: "تهادوا تحابوا". وإسناده حسن.

^٤ [الشعراء: ١٦-١٧]

^٥ [النازعات: ٢٤]

^٦ [الشعراء: ٢٩]

وب{يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} فكلاهما أطلقا إشارة الإعلان.

الأول: منطقيٌّ من رسول بشر حكيم.

والثاني: نادُّ عن المنطق غير حكيم، يزعم أنه إله أعلى.

الثانية: التعبير والبيان

ويأتي في المرتبة الثانية (التعبير والبيان). وهو "كلام يبيِّن ما في النَّفس من معنى" فيقال: هذا تعبير جميل موفق. وهذا الرَّجُل يُحسن التَّعبيرَ عن نفسه^١.

وفي قصة موسى يتمثل التعبير منه بـ{فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ} و: {وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ} ومن فرعون بـ{قَالَ: إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} و{قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}.

الثالثة: (القناعة والإقناع)

وهي نهاية الطريق، إذ تهدف لغة التواصل إلى (القناعة والإقناع)^٢ ففيها يحل الأمن والوثام. ويُترجم ذلك بإبطال فكر الآخر أولاً، ثم تقديم الأدلة والبراهين المكتوبة والمسموعة والمرئية من الطرف المرسل إلى المستقبل المرسل إليه-ثانياً- بُغية إقناعه بفلسفته أو رأيه، ومن ثمَّ نيل الوصول والتواصل الحميمين.

١ [الزخرف: ٥١]

٢ جمع تعبيرات وتعابير (لغير المصدر) - وهو مصدر [عَبَّرَ]. معجم اللغة العربية المعاصرة (١٤٥٠/٢)

٣ [النازعات: ١٨، ١٩]

٤ [طه: ٤٧].

٥ [الشعراء: ٢٧]

٦ [الأعراف: ١١٠]

٧ قَنَعَ يَقْنَعُ قُنُوعًا، فهو قَانِعٌ. وقَنَعَ يَقْنَعُ، قَنَاعَةً، فهو قَانِعٌ وَقَنُوعٌ وَقَنْعٌ. والمفعول مقنوع به ومقنوع إليه: رَضِيَ بِالْقَسْمِ وَالْيَسِيرِ. وإلى الشَّخْصِ: خَضَعَ وَانْقَطَعَ إِلَيْهِ. معجم العربية المعاصرة (١٨٦٣/٣) (١٨٦٣/٣)

وفي قصة موسى كانت لغة التواصل هكذا، فمنهم من نجح فوصل، ومنهم من فشل وانتكس، وبالآيات التالية كانت البداية: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنِ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٢٦)} حتى النهاية.

لغة التواصل بين (موسى وفرعون)

وفي القرآن صور كثيرة بهذا الاتجاه، تطال جوانب الحياة بشتى أنواعها، وقصة موسى النبي هي الأبرز فيه، حيث تشمل مهارات بارزة تستحق الدراسة، وتشكل خطة استراتيجية محكمة ونظيمة. وتمثل لغة التواصل - هنا - مع أصحاب السلطة، من رأس الهرم إلى من هو دونه - تحكمه مجموعة أنظمة فنية وأدبية. فرأس الهرم في قصة موسى هو (فرعون)، ودونه السحرة وملؤه. ونركز في بحثنا فيه على محورين اثنين:

الأول: التواصل المباشر وجهًا لوجه

ويمثله: اقتحام موسى عرش فرعون، مبتعثًا من قبل رب العالمين، ليتواصل معه، في توجيهه نحو الصواب، إذ نشب الصراع بينهما في تحديد هوية المنهج - ففكرًا ومسلًا - فأعلن موسى عن مهمة رسالته ب: {وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} بينما الجانب الآخر كان منفعلًا، لأنه فُجِئَ بقول موسى، فأطلق ردًا مضطربًا غير متوازن: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} و يدلل على زعم مصداقيته ب: {قَالَ: يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ}٤

١ [الشعراء: ٢٣ - ٣٩].

٢ [الأعراف: ١٠٤].

٣ [الشعراء: ٢٩].

٤ [الزخرف: ٥١].

وكلاهما (موسى وفرعون) يبغيان التواصل بالفكرة والمنهج.

فالأول (موسى): قولٌ حكيمٌ رصينٌ، صادر عن ذي لَحْنٍ^١.

استطاع أن يحقق التواصل وبلوغ الهدف، لأن لغة التواصل تُبنى على البيّنة، وما تحمله من مقومات، وحتى تكون اللغة تعبيرية مبيّنة، فلا يمكن اختراقها، فقد تنبه موسى - بلَحْنَه - إلى معوقٍ، ربما يكون مانعا من تقبل فرعون التواصل معه؛ فالتمس من ربه السماح باصطحاب أخاه (هارون) ظهيرا إلى جانبه، يزيد في قوته ويشد من عضده، حتى يتوصل إلى الإقناع.

فالأخير: منحه الله فصاحة تفوق فصاحة الأول: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ} (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ^٢ { و عرف على أخيه بأنه الأفصح: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ^٣ { ومن فوره أجيب سؤله: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ^٤ {

كما تنبهه -أيضا- إلى ذنبٍ - بنظر الناس- هو معوق آخر، فالتمس حلا من ربه: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ^٥ { وقال تعالى: {قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى} (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى^٦ {

فها هنا مخافتان .

الأولى: مخافة من القتل .

والثانية: مخافة من التكذيب.

^١ لَحْنٌ: بفتح الحاء (الفتنة). وهو موسى.

^٢ [الشعراء: ١٣].

^٣ [القصص: ٣٤]

^٤ [القصص: ٣٣ - ٣٥]

^٥ [الشعراء: ١٤ - ١٩]

^٦ [طه: ٤٥ - ٤٦].

ويعذر في تخوفه هذا، لأن الفصيح ربما يقابل الأفصح فيحتمل غلابه،
فيطلب مساعد له هو الأفصح^١.

والآخر(فرعون): فقد كان رده مهزوزًا صادرًا عن غفلة ودخن^٢، كثر ما
يسقط صاحبه قبل نيل المراد. إذ كيف يقول: {تجري من تحتي}؟ فمثل هذا التعبير
يروج على الدهماء السذج، ويجلو عند علية القوم المحنكين المجربين. صحيح أنه
تعبير معبر، لكنه يمكن فهمه بأحد احتمالين:

الأول: أن يكون قد ادعى أن النيل يجري بأمره، فيكون (من تحتي) كناية عن
التسخير-كقوله تعالى: {كانتا تحت عبيد من عبادنا صالحين} أي: كانتا في
عصمتهما. ويقول الناس: دخلت البلدة الفلانية تحت الملك فلان.

والثاني: أنه أراد أن النيل يجري في مملكته من بلاد أسوان إلى البحر، فيكون
في (تحتي) استعارة للتمكن من تصاريف النيل- كالاستعارة في قوله تعالى: {قد جعل
ربك تحتك سرياً} على تفسير (سرياً) بنهر، وكان مثل هذا الكلام يروج على الدهماء
لسذاجة عقولهم^٣. ومن ثم صدق التعبير بحقهم: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}٤

طبيعة التواصل

وطبيعة التواصل- هنا- عدائية بامتياز ، بدليل: {يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ}٥ ثم
- وإن كانت عدائية- فالتعادي لا يدوم. فكم من متعاضدين يتحولان بلغة التواصل إلى
صديقين. والتواصل هنا محصور بين متعاضدين:

١ ره: التحرير والتنوير (١١٦/٢٠)

٢ دُخْنٌ لَوْنٌ السَّيِّءِ: صار كلون الدخان . معجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٧٣٠)

٣ [التحريم: ١٠]

٤ [مريم: ٢٤]

٥ ره: التحرير والتنوير (٢٣٠/٢٥)

٦ [الزخرف: ٥٤]

٧ [طه: ٣٩].

الأول : (فرعون)

فهذا الخصم، عدو من جهتين: عدو لله: لأنه لفه الكبرياء، فانتحل لنفسه الإلهية وتعبد شعبه، فنهج في الحياة نهجاً شاذاً، أشقاه وأشقى من تبعه. وعدو لموسى: لأنه من شبان بني إسرائيل، وقد اعتزم قتل أبناءهم. وبنظر فرعون -أيضا-: إن موسى قاتل مجرم . لأنه قتل من قوم فرعون رجلا. وقد ذكَّره به في مقابلاته: {وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}

والثاني: (موسى)

وعداؤه على سبيل المشاكلة والمجاز، فهو عدو (فرعون) في ادعائه الألوهية، لأنه شذ عن الفطرة، وكان موسى رافضاً ذلك، وبنيتته التواصل بعدما يُزال العائق: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}² وعداؤه منصب على (الأفعال والأقوال)، وليس على الذات، إذ هما معوقان يجب تبديلهما بالأحسن والأخير ، حتى يتواصل الطرفان بإصابة الهدف، ولن تكون سيرورة التواصل -هنا - مفروشة بالورود والرياحين، فأمامها معوقات شتى، هي عسيرة الهضم.

الثقافة والتعبئة المعنوية

ومن جهة المتواصل الأعلى، فإن تواصله يمر عبر رسول، لذلك فإنه يعتمد على حسن الاختيار حتى ينجح، والمتواصل الوسيط - لا شك- إنه حكيم قوي ذو لَحْن، وقديما؛ قال الشاعر طرفة بن العبد:
(إذا كنتَ في حاجةٍ مُرْسِلاً... فأرْسِلْ حَكِيماً وَلَا تُوصِهِ³)

¹ [الشعراء: ١٩]

² [النازعات: ٢٤]

³ ره: ديوان طرفة بن العبد (ص: ٥١) لا توصِ حَكِيماً [لمتقارب]

أي: هو مستغنٍ بحكمته عن الوصية^١. غير أن الحكمة وحدها لا تكفي في لغة التواصل. لذا، يجب أن يعبأ المرسل معنوياً وثقافياً، ليكون على هدًى وبصيرة، ويتجنب الانزلاق في محيط الزلل: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ^٢}

هذا، وقد عبَّأه ربه بتذكيره بنعم ربانية كبرى لم تمنح إلا له: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي^٣} فهذه المنة دلالة على أنها محبة خارقة للعادة، دونما اصطحاب لأسباب المحبة العرفية من الإلف والانتفاع، لكي تحصل الرقة لواجده في اليم، فيحرص على حياته ونمائه ويتخذه ولدًا.

وترجمت تلك المحبة ب: {وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا^٤}

وامتناع فرعون عن قتل موسى، كان ناشئاً عن أحد احتمالين:
 الأول: غلب على ظنه أنه من غلمان إسرائيل، لا من أبناء القبط.
 والثاني: خطر بباله الأخذ بالاحتياط فهم بقتله، غير أن آسية ثنته عن عزمه فكان قرّة عين لها قبل أن ينفعها وقبل اتخاذه ولدًا^٥.

ومع أن القرآن قد صرح بتعادي فرعون بسبب طغيانه: {اذهبا إلى فرعون إنه طغى} غير أنه كان يحمل فكرًا يبغى تصديره كما موسى، فأَيّ الفريقين كان أمضى حجة في تمتين دعوته، كان المحقق للغة التواصل عبر فكره ومنهجه.

ماهية لغة التواصل : (أسلوب ومضمون)

ولغة التواصل أيًا كانت وجهتها، فإنها يجب أن تسير بجناحين (أسلوب، ومضمون)، وفي قصص موسى مع فرعون، كانت كذلك، حيث تمر عبر منهجية

^١ ره: مجمع الأمثال (٣٠٣/١)

^٢ [يوسف: ١٠٨]

^٣ [طه: ٣٩]

^٤ [القصص: ٩].

^٥ ره: التحرير والتنوير (٢١٧/١٦)

واستراتيجية مؤثرة وقوية. فالمضمون فيها مختزل في: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيَنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ
أَوْ يَخْشَىٰ}١

و(اللين) حقيقة: من صفات الأجسام. وهو: رطوبة ملمس الجسم وسهولة
ليّته، وضد اللين الخشونة. ويستعار اللين لسهولة المعاملة والصفح. قال عمرو بن
كلثوم: (فإن قناتنا يا عمرو أعيت .. على الأعداء قبلك أن تلينا)
وحده اصطلاحاً: " بأنه الكلام الدال على معاني الترويب والعرض واستدعاء
الامتثال "

وذلك بأن يظهر المتكلم للمقابل أن له - من سداد الرأي- ما يتقبل به الحق،
ويميز به بين الحق والباطل، مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب،
أو تجهيله٢.

وخير ما يفسر اللين في تواصل (موسى مع فرعون) ما جاء في آيات أخرى: {فبما
رحمة من الله لنت لهم}٣و: {فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ}٤
و: {قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ}٥وتأثير القول اللين يكمن
في: {لعله يتذكر أو يخشى}. ف[التَّذَكُّرُ]: (طلب ذكر ما نسي)٦.

وينفرد ابن عاشور في تحليله بقوله: "والتذكر: من الذكر. أي: النظر. أي: لعله
ينظر نظر المتبصر فيعرف الحق، أو يخشى حلول العقاب به، فيطيع عن خشية لا
عن تبصر٧.

١ [طه: ٤٥].

٢ ره: التحرير والتنوير (١٦/ ٢٢٥) فشبه الكلام المشتمل على المعاني الحسنة بالشيء اللين.

٣ [آل عمران: ١٥٩].

٤ [النازعات: ١٨، ١٩].

٥ [طه: ٤٧].

٦ التَّذَكُّرُ. الجذر: ذكر. الوزن: التَّفَعُّلُ. وَذَكَرَهُ فَتَذَكَّرَ: أي: وعظه فاتعظ: {سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى}٧

٧ ره: التحرير والتنوير (١٦/ ٢٢٦)

وكذلك، فإن اللين لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف، الذي يعيش به الطغاة. ومن شأنه: أن يوقظ القلب، فيتذكر، ويخشى عاقبة الطغيان^١. ويظهر هذا جلياً عندما نطالع في مجريات التواصل العلي، الذي سيأتي لاحقاً. فموسى قد كان راقياً جداً، حيث أدلى بحجته دونما لبس أو مناورة، بأسلوب حكيم ومضمون طيب نزيه، مجتنباً التسفيه والتجهيل، بينما فرعون لم يكن متواصلاً وفق المبادئ المرسومة، وإنما قفز من فوقها يبتغي الوصول إلى هدفه، فطمس في وحل التجهيل والتسفيه.

الأسلوب الحكيم

والأسلوب التواصلي نوعان: حكيم، وغير حكيم. فما انتهجه موسى هو (الأسلوب الحكيم) أحد فنون البلاغة العربية، وكذلك انتهجه في القصص القرآني الأنبياء والمرسلون. وحُدِّدَ ب: "تلقى المخاطب بغير ما يترقبه". إما بترك سؤاله، والاجابة عن سؤال لم يسأله. وإما بحمل كلام المتكلم على غير ما كان يقصد ويريد- تنبيهاً على أنه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال، أو يقصد هذا المعنى. ويمثله ما فعله ابن القبعثري^٢ مع الحجاج. إذ قال له الحجاج مُتَوَعِّداً: "أحملتك على الأدهم" يريد الحجاج: القيد الحديد الأسود. فقال ابن القبعثري «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب». يعني: الفرس الأسود، والفرس الأبيض. فقال له الحجاج: "أردت (الحديد)!" فقال ابن القبعثري: "لأن يكون حديداً، خيرٌ من أن يكون بليداً"^٣.

^١ ره: في ظلال القرآن (٢٣٣٦/٤)

^٢ ابن القبعثري: الغضبان بن القبعثري الشيباني، وكان ممن خرج على الحجاج بن يوسف الثقفي.

^٣ ره: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (١/١٤٦)

ومرادده: تخطئة الحجاج بأن الأليق به الوعد (لا الوعيد).
وللأسلوب الحكيم أثر في التواصل، يفعل فعل السحر، وقد أوضح السكاكي
هذا الأثر بقوله: « وإنّ هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام، فحرك من نشاط
السامع، فسلبه حكم الوقور، وأبرزه في معرض المسحور.
وهل الآن شكيمة الحجاج لذلك الخارجي، وسل سخيمته؟ حتى أثر أن
يحسن على أن يسيء، غير أن سحره بهذا الأسلوب، إذا توعدده الحجاج بالقيّد في
قوله: « لأحملنّك على الأدهم»
فقال متغابياً: «مثل الأمير- يحمل على الأدهم والأشهب» مبرزاً وعيده في
معرض الوعد، متوصلاً أن يريه بالطف وجهه: أن امرءاً مثله، في مسند الإمرة
المطاعة، خليق: بأن يُصْفِدَ لا أن يَصْفِدَ، وأن يَعِدَ، لا أن يُوعِدَ»

الأسلوب غير الحكيم^٢

و ضد أسلوب الحكيم في التواصل (الأسلوب غير الحكيم)، وكلا الأسلوبين
قد استخدما في القصص، وقد انتهج غير الحكيم في القصص القرآني كل من
(فرعون، والنمرود، وإبليس، والسامري)- كقول نمرود: {أنا أحيي وأميت}١
وكقول فرعون: {سَنَقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ}٢
فهنا استخدم فرعون الوعيد والتهديد مكان الحجّة والبرهان، متوهماً أنه
بالعصا الغليظة، يمكنه أن يتواصل مع المقابل دائماً، ولم يدر أنه بهذا كان بمنأى

١ (يُصْفِدُ وَيُصْفِدُ). (يُصْفِدُ). الإصفاد: الإعطاء من الصفد. وهو العطاء. (يصفد): صفده يصفده: بمعنى
قيده. ولهذا يسمى القيّد صفاداً.

٢ ره: مفتاح العلوم ص ١٥٦

٣ ره: عنايه القاضي وكفاية الراضي (٣٣٦/٢) وسي في علم البلاغة (الأسلوب الأحمق)

٤ [البقرة: ٢٥٨]

٥ [الأعراف: ١٢٧]- ره: حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي (٢٠٤/٦) فتوح الغيب في الكشف عن قناع
الريب (٣٣٧/٦) (٢٣١/١٠) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (١٣/٥)

عن بلوغ الغاية. بينما (الأسلوب الحكيم) تمثل في إجابات موسى على أسئلة فرعون ، وكان الأجدى والأنجع، حيث حقق نتائج مرضية وثمراً يانعة.

فلغة التواصل- إذن - سارت وفق أسلوبين متعاكسين (حكيم وغير حكيم)، إذ يثور الخلاف بينهما حول (الإله الحقيقي، والإله المزعوم).

وطبيعي: أن يكون البادئ فرعون، لأنه مالك المضمار فلما طلب ماهية الإله الحق من موسى - وهو أسلوب غير الحكيم - ظاناً: أن رب موسى كائن مثله، لم يزد موسى في إجاباته على ذكر صفة (الخلاقية^١)- ثلاث مرات - على خلاف ما يترقبه السائل ، سالكا بذلك الأسلوب الحكيم.

خطوات التواصل العلنية

وفي قصة موسى مع الفرعون مباشرة، نظام التواصل فيه من الأعلى هو (الله) إلى الأدنى (فرعون) وبينهما وسيط يحمل رسالة هو (موسى) فمهمة التواصل تقع على عاتقه بتأييد من ربه، أما السبيل في التواصل بينه وبين فرعون فهو من الأدنى (موسى) إلى الأعلى (فرعون).

ولم يلبث أن انطلق بمهمته التواصلية، فأعلن عن دعوته في مجلس فرعون، فألقى بين يديه مضمون الرسالة التي حُمِّلها: {إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى} ٢

الضربة الاستباقية

ولما ألقى رسالة التواصل بين يدي فرعون بإعلان ومضمون، وفق أصول ومنهج التواصل الحكيم: {رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} ٣

١ وقد تفرد بها الرازي. ره: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٤/٢٦٨)

٢ [طه: ٤٧]

٣ [الشعراء: ١٦-١٧].

وهذا عرض لطيف لاسترداد حرية شعب مقهور، لا يختلف عليه اثنان من ذوي الحِجاء، فمن الطبيعي أن يتفاعل المقابل معه، ويصغي إليه بإذعان، غير أن الواقع غير ذلك، فتلك كانت صدمة للمقابل، ولم تكن قوية حيث تطيش به، فتفقدته التعقل والتدبر، بل أعطي مساحة زمنية، ليفكر قبل أن يتوعد المطالب بمطلبه، ففكّر فرعون وقدّر، حتى خلس إلى الطعن بخصمه - أولاً - عبر تذكيره بحقائق لا يمكنه دحضها، فأراد أن يقرّمه معرّضاً به: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ* وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ^٢}

فبرأيه: مثل هذا لا يرشح لمنصب عال، فضلاً عما ادعاه، وإذا تشوهت صورة الرسول، ضعفت قناعة المستمعين بما جاء به. فكان رد موسى بطريق الإقناع المفحم: {قَالَ فَعَلْتُمَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ^٣} ثم أحرجه بتنفيذ ادعائه: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ^٤}

فارتدت الضربة الفرعونية على وجهه ولم يُجزّ جواباً، ذلك لأن الأسلوب الحكيم بعثر جوهر القضية، فكانت كالشمس الساطعة، يستحيل حجها بضبابية الالتفاف حولها، وتشويش الذهن.

السؤال (١)

وبالضربة الاستباقية الأنفة الذكر، أراد أن يمنع عن موسى الولوج في مسيرته التواصلية، لكنها ردت بوجهه، فاضطر أن يسمح له، كيلا يخسر أتباعه من اللقاء الأول، فعجّل بالمواجهة العلنية، وكان فرعون البادئ فيها بلا استئذان، إذ فاجأ

^١ "من ذوي الحِجاء: ذكيّ حكيم". معجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٤٥١)

^٢ [الشعراء: ١٨-١٩]

^٣ [الشعراء: ٢٠-٢١]

^٤ [الشعراء: ٢٢]

^٥ أحرار الجواب: ردّه "سأله؟ فلم يُجزّ جواباً". معجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٥٧٨)

موسى - متسرعا- بسؤال عن ماهية ربه^١، والماهية مستحيلة المعرفة للذات الإلهية،

لعجز البشر عن دركها: {قَالَ فِرْعَوْنُ: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ^٢}

وفي موضع آخر: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى^٣.

فقوله: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ سؤال عن ماهية مَنْ لا ماهية له ، توصلًا إلى بعض

أغراضه الفاسدة، فكان مهلهلاً أجوف، إذ طبيعي أن يكون جوابه: ربنا فلان، وأنه كذا. ويكون المعنى: أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله؟.

ولما كان السؤال عن الماهية مما لا يليق به جل وعلا ، فقد عدل موسى - وفق

الأسلوب الحكيم- عن الجواب المترقب ، ليرد عليه - بغير ما يترقب السائل- بذكر

أفعاله وآثار قدرته التي تعجز الخلائق عن الإتيان بمثلها، وأنه ربُّ كل شيء ، وربُّ ما

ذكر^٤: {قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ^٥}. وذلك، لأن الله -

تعالى- منزه عن الجنسية والماهية، فهما من أوصاف الخلق، والله ليس كمثله شيء^٦.

وفي موضع: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى^٧.

السؤال (٢)

وعندما سمع فرعون ذلك الرد، خشي أن يعلق منه في قلوب أشراف قومه

شيء^٨، وساوره خوف فتنة قومه، فقال- مبالغًا في الرد على موسى- بالإشارة

والتلميح- بعدم الاعتداد بذلك، مصرحًا بما ينفر قلوبهم عن قائله، وقبول ما يجيء

^١ اسم الاستفهام: هو اسم مهم يستعلم به عن شيء. جامع الدروس العربية (١/ ١٣٩)

^٢ [الشعراء: ٢٣]

^٣ [طه: ٤٩] و(ما): يستفهم بهما عن غير العاقل - من الحيوانات والنبات والجماد والأعمال - وعن حقيقة

الشيء أو صفته، سواء أكان هذا الشيء عاقلًا أم غير عاقل. و(مَنْ): يستفهم بها عن الشخص العاقل.

^٤ ره: تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٣/ ٣٢٣)

^٥ [الشعراء: ٢٤]

^٦ ره: تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٧/ ٢٨٥)

^٧ [طه: ٥٠].

^٨ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة.

به.^١ حيث أوهمهم: أن مجرد استماعهم له، كاف في رده وعدم قبوله، فلفتهم إلى التعجيب منه والإزاء بقائله، ملمحًا إلى عدم مطابقة الجواب للسؤال، حيث لم يبين موسى الحقيقة المسئول عنها: {قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: أَلَا تَسْتَمِعُونَ؟}٢ وبهذه التحويلة خرج عن أدبيات التواصل. واستشعر موسى ذلك منه فلم يفعل مثله، بل استمر منضبطًا بأدبيات التواصل، ولم يألُ جهدًا في ترسيخ الفكرة التي يبثها - وهي تعذر الوقوف على الحقيقة - حتى لا يدع للحضور فرصة التفكير بما أغراهم إليه فرعون: {قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}٣

السؤال: (٣)

وكانت إجابة موسى كوقع الصاعقة عليه، فأراد أن يقلل من شأنه، حيث يُسأل عن شيء ويجيب عن شيء آخر، ويُنبه على ما في جوابه ولا يتنبه، فما كان فرعون إلا أن سماه (رسولًا) بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطبيه، ترفعًا عن أن يكون مرسلًا إلى نفسه، وأكد ذلك بالوصف لعله يصل إلى بلغته: {قَالَ: إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ مَجْنُونٌ}٤

ولم يكن موفقًا بهذه التحويلة المحتالة - حين جننه^٥ إلى قومه توهماً، ووطنز به مسخرة^٦، وسماه رسولهم؛ لأن هدفه أن يثير غضبهم، ويستدعيهم لإنكارهم رسالته، بعد سماع الخبر- ترفعًا بأنفسهم عن أن يكونوا أهلاً لأن يُرسل إليهم مجنون!٧. ومثل هذا مخلُّ بأدب التواصل بين متواصلين، وموسى ثابت الجنان لم

١ ره: تفسير الألوسي = روح المعاني (٧١ / ١٠) (٧٢ / ١٠)

٢ [الشعراء: ٢٥].

٣ [الشعراء: ٢٦]

٤ [الشعراء: ٢٧].

٥ جنَّ الشَّخْصَ: ١ - جعله مجنونًا. ٢ - أثاره بحدَّة، استفزَّه، هيَّجه "جنَّه بتصرفاته الغريبة". معجم اللغة

العربية المعاصرة (٤٠٧ / ١)

٦ «وطنز به» أي: سخر به، واحتدم. أي: التهب صدره غيظًا.

٧ ره: تفسير الألوسي = روح المعاني (٧٣ / ١٠)

يأبه بهذا الاستفزاز، بل بقي مستمراً في تجييش الحضور، وفق أسلوبه الحكيم الذي امتطاه، ولم يجد عنه قيد شعرة^١: {قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ^٢} وكاد الفرعون يبزع نفسه غيظاً من إجابات موسى، فما أن ثلث موسى بتقريره الأخير، حتى احتدّ فرعون^٣ واحتدم^٤، فهدد بالسجن، وفق أسلوب غير حكيم: {قَالَ لَئِن آتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ^٥} وهنا انفلت تماماً من ضوابط التواصل، فبلغ نهاية الانقلاب على العقل والمنطق.

السؤال (٤)

وهدأت ثورته قليلاً، فلم يلبث أن اشتط فقام بتحويلة أخرى، فألقى سؤالاً عساه أن يشتت انتباه الحضور، ويحوّل الموجة إلى أخرى، ومن ثم يحول دون مسار التواصل الموسوي، فيصل إلى مبتغاه: {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى^٦} وموسى لم يجد عن أسلوبه قيد أنملة، فيرد بإسهاب غير ممل، يفيض قناعة وتمكيناً: {قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣)^٧} وبتحويلته هذه، استشعر موسى أن فرعون ربما قد تاب إلى رشده، وعاد إلى التواصل بطريق الفكر والعقل، مضرباً عما نهجه وسلك فيه من التلويح بالسجن،

^١ لم يتزحج عن رأيه قيد أنملة/ شعرة: تمسك به. معجم اللغة العربية المعاصرة (٩٧٥/٢)

^٢ [الشعراء: ٢٨].

^٣ احتدّ الشَّخْصُ: أغلظ القول في غضب وجدة. احتدّ في محاورته: غضب. العربية المعاصرة (٤٥٦/١)

^٤ احتدمت النَّارُ ونحوها: اشتدّت، التهبّت "احتدم حرّ النهار- احتدم النقاشُ بينهما- احتدم صدره غيظاً:

اشتعل- محتدمٌ/ محتدمٌ غيظاً". معجم اللغة العربية المعاصرة (٤٦٠/١)

^٥ [الشعراء: ٢٩]

^٦ [طه: ٥١].

^٧ [طه: ٥٢-٥٣].

فنهز الفرصة ليأخذ بزمام المبادرة بدلاً من فرعون- بعدما كان مسؤولاً فصار
السائل- فعاجله بسؤال بين يديه: {قَالَ: أَوْلُو جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ} {
وانجر فرعون إلى هذا المقام المتبدل، وعلى التو، وافق دونما تأمل: {قَالَ: فَأْتِ
بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} وبموافقته على الإدلاء بالبينة، كان البساط من تحته
قد انسحب على حين غفلة من أمره، أو كاد، وموسى لما يتمتع من لحن وسرعة
بديهية، فعاجله بالبينة: {فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ
بِیَضَاءٍ لِّلنَّازِرِينَ {

مهابة فرعون إلى أين؟

وكالعادة - إن عجز المتواصل عن إقناع المقابل بفكره الممنهج - وكان عازما في
تصدير فكره طوعا أو كرها - فإنه يلجأ إلى التهديد والوعيد، فيلجأ باستخدام القوة
المفرطة- وهي إحدى وسائله الأخيرة- وفق الأسلوب غير الحكيم، لعله يحرص موسى
ويثنيه عن التواصل الزاحف في اتجاهه، فرفع عقيرته باتخاذ قرار القتل بمفرده:
{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي
الْأَرْضِ الْفَسَادَ} {

ثم أقبل على قومه ليكون القرار جماعياً: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا
قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ} {غافر: ٢٥}- غير أن موسى كان قد جهّز تماماً لهذه المحاولة غير الحكيمة،
فرد عليه -منوهاً بعظمة رب العالمين: {وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ
مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} {

١ [الشعراء: ٣٠].

٢ [الشعراء: ٣١].

٣ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨].

٤ [غافر: ٢٦].

٥ [غافر: ٢٧].

وهنا سقطت مهابة فرعون وملئه، لأنهم نهجوا الأسلوب غير الحكيم، فالبيئة لا تقابل إلا ببيئة، لا باستخدام القوة المفرطة، وخشي أن يثير التهديد بالقتل شعبه عليه، فانتفى عنه وانعطف نحو القذف بالتهم، فاتهم موسى فرعونُ ومن معه: بأنه يريد أن يخرج الناس بسحره من أرضهم، إما توهُماً بأن موسى ينتهج السحر، وإما عرف الحقيقة ويريد طمسها، فحاول إيهام ملئه والناس، بتهميجهم وإثارتهم؛ لأنه - من قبل - أقنعهم بأنه إله، فتوشك هذه الخطوة والتي قبلها، أن تهدم دعواه تلك في لحظة واحدة: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى }^١

مؤمن آل فرعون والمفاجأة

وسرعان ما يدخل على الخط- مفاجأة- (مؤمن آل فرعون^٢) الذي أمكن منه موسى تواصلًا- ولم يكن ذلك بحسبان الحضور- ساعتئذٍ- فوثب المؤمن خطيبًا مصقعًا، ولم يلق بالألإ إلى أحد، حتى تجاهل فرعون: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ }^٣

وظهور المؤمن فجأة مقرعًا الحضور، قد جعل فرعون يطيش حجره ويتصدع أسلوبه وتهتز هيبتة، ولكي يحافظ على المهابة، فقد استبق المؤمن فقاطعه، وانثنى عن القتل الذي أصدره محدثا نفسه: كنت بواحد فصرت باثنين. فغير اتجاه تواصله، فطلب الإله في السماء بوصفه الإله بالخلّاقية، وكاد أن يقترب

^١ [طه: ٥٦/٥٨].

^٢ هو حزبييل بن ميخائيل، هو ابن عم قارون، وكان أبوه من آل فرعون، وأمه من بني إسرائيل.

^٣ [غافر: ٢٨ - ٣٣]

من نقطة التواصل دونما شعور، فأقبل على ملئه يثبتهم على عقيدة إلهيته، فسلك
 جدلاً سفسطائياً، يدل على سوء انتظام تفكيره وملئه، ومبلغ تحيله وضعف آراء
 قومه^١، فحاول تشتيت الانتباه بدعوة عجيبة غريبة، متوجهاً إلى وزيره (هامان):
 {وَقَالَ فِرْعَوْنُ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَا مَانُ عَلَى الطِّينِ
 فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا^٢ لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ^٣}

بيد أنه لم يتنبه في خطوته المقبلة، أنه قد زاد تزلزلاً أمام حاشيته، ولم يعد
 يهيمن كما كان قبل- ولو زوراً- على محكوميه. وبصدد الحديث عن الصرح هذا،
 فقد قيل ما قيل فيه، لكنه غير دانٍ من التقبل. وكم أعجبي ما لمَّح إليه ابن عاشور
 في تفسيره، حيث قال: "وقد لاح لي هنا محمل آخر، أقرب أن يكون المقصود من
 الآية، ينتظم مع ما ذكرناه هنالك في الغاية، ويخالفه في الدلالة، وذلك أن يكون
 فرعون أمر ببناء صرح، لا لقصد الارتقاء إلى السماوات، بل ليخلو بنفسه- رياضة-
 ليستمد الوحي من الرب الذي ادعى موسى أنه أوحى إليه إذ قال: {إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا
 أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى^٤}

فإن الارتياض في مكان منعزل عن الناس، كان من شعار الاستيحاء الكهنوتي
 عندهم، وكان فرعون يحسب نفسه أهلاً لذلك، لزعمه: أنه ابن الآلهة، وحامي
 الكهنة والهيكل .

وإنما كان يشغله تدير أمر المملكة فكان يكل شؤون الديانة إلى الكهنة في
 معابدهم، فأراد-في هذه الأزمة الجدلية- أن يتصدى لذلك بنفسه، ليكون قوله
 الفصل في نفي وجود إله آخر، تضليلاً لدهماء أمته، لأنه أراد التوطئة للإخبار بنفي
 إله آخر غير آلهتهم، فأراد أن يتولى وسائل النفي بنفسه، كما كانت لليهود محارِب

^١ ره: التحرير والتنوير (١٢١/٢٠)

^٢ ره: التحرير والتنوير (١٤٦/٢٤)

^٣ [القصص: ٣٨].

^٤ [طه: ٤٨]

للخلوة للعبادة، كما تقدم عند قوله تعالى: {فخرج على قومه من المحراب^١} وقوله:
{كلما دخل عليها زكريا المحراب^٢}

ومن اتخاذ الرهبان النصارى صوامع في أعالي الجبال للخلوة للتعبد،
ووجودها عند هذه الأمم يدل على أنه موجودة عند الأمم المعاصرة لهم والسابقة
عليهم^٣.

ولم تهدأ ثورة المؤمن، فلم يلبث فرعون أن يتوقف عن الكلام العجيب، حتى
تلقى وكزة قويةً منه، فواصل خطبته المزلزلة: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ
سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥)} وثمة، تلاشى
التهديد والوعيد.

الثاني : التواصل غير المباشر

خرج فرعون من تجربتيه- فشل التواصل مع موسى لضعف حجته، وتجربته
الكهنوتية الغربية- خائبًا، وخُلف التواصل بين الكيانين الرئيسين (موسى وفرعون)
سلبياً. إذ تلقى صفة من داخل بيته وندماء قصره، فواجه إحراجًا لم يعهده من
قبل، حيث وقع في نكبة أذهبت هيبته وقرّمت هيئته، فأنى له أن يخرج منها حتى
يظل في هيئته وهيبته؟.

فحوّل صراع التواصل إلى السلطة الرديفة (السحرة والملا) بل أقواها- فكريًا
ومشورًا - والتي يستخدمه عند الحاجة للتواصل مع الآخر.

وكلا الطرفين- موسى والسحرة - يفهم جوهر القضية، ويتمتع بمهارات
ومقومات تواصلية عميقة، فما إن ظهر القاسم المشترك بينهما حتى تم التواصل
إيجابيا فائتم، وحُيِّدَت السلطة الرديفة- السحرة - عن رأس الهرم فرعون تمامًا،
وألقي السحرة ساجدين.

^١ [مريم: ١١]

^٢ [آل عمران: ٣٧]

^٣ ره: التحرير والتنوير (١٤٦/٢٤)

وكان لفرعون- كما جميع الملوك- ملاً، يمثلون القوة الفكرية المحفوظة بالحنكة والتجربة؛ ويطلق عليهم اسم (الملاً). وقيل في ماهيته: هم القوم الأشرافُ الذين يتصدرون المجالس ويملؤونها، أو الذين يملؤون العيون هيبة، والقلوب مهابة ، وهم- هنا - المقربون من فرعون، وأصحابُ مشورته.
وكأنهم كانوا يملكون فكرةً وعلماً عن السحر^١.

ويتحرك فرعون بتحويلة أخرى، في اتجاه ضبط المملكة وحفظ البلاد، فيحرض على دفع هذا العدو القوي عبر سحرته- كما يتوهم - فهم القوة الرديفة للملكة: {فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى^٢}

ويلتقط موسى هذه التحويلة عن بُعد، فيحذر الجميع: {قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى^٣}
لكن الفريق الآخر ماضٍ في مخططه، فعقد مجلس التشاور والتأمل ليخرج بقرار سري: {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى^٤}

واستقر رأيهم بتوافق الجميع على مقولة واحدة، مخاطبين بها فرعون: {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ }

وفي موضع آخر: {قَالُوا إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى^٥}

وأعلن فرعون قراره الأخير: {قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي

١ ره: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٢٥٩) وتفسير الشعراوي (٧/ ٤٢٨٥)

٢ طه: ٦٠ -

٣ طه: ٦١ -

٤ طه: ٦٢ -

٥ طه: ٥٢ .

المدائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ
مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) {١}

السحرة ، ولغة التواصل

لقد تقدم: أن التواصل المباشر مع الفرعون كان سلبياً، وتحول إلى غير المباشر، لعله يظفر بمبتغاه، فدعا موسى للتباري مع السحرة جهاراً نهاراً، ولم يكن متوتراً هذه الساعة، فقد بدا، وكأنه على أدب ظاهر مع المقابل، فسأله أن يحدد الزمان والمكان، فحددهما موسى من مركز القوة لا الضعف: {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ ضُحًى} {٢}

وهنا خرج فرعون من المعادلة الندية، إلى مُشاهد يرقب نتيجة هذه الجولة، الممثلة بتواصل (النظير مع النظير) الناجح فيهما من يدلي بحجة أقوى، فأقبل السحرة ملبين دعوته مطيعين أمره، فنادى فيهم: {فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} {٣}

ولأن الأمر جلل، فقد نهزوا الفرصة فأخذوا ضمانات مادية ومعنوية: {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} {٤} وقبلًا، هاب السحرة ما صنع موسى بين يدي فرعون - وإن كانوا أمهر زمانهم في السحر- فهم لم يدركوا-بعد- حقيقة صنعه، أهو السحر أم شيء خارق للعادة يستحيل مجاراته والتواصل معه؟

١ [الشعراء: ٣٤ - ٣٩]

٢ [طه: ٥٧ - ٥٩]

٣ [طه: ٦٤]

٤ [الأعراف: ١١٣ - ١١٤]

ولما تزاحفوا تجاه موسى، وأصبحوا وجهها لوجه، كانوا على أدب جم وأنيق ، فلم يفرضوا عليه أن يكون أول من يلقي، وإنما خيروه بصيغة التعظيم- تأدبا وتفضيلا: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ} وأكدوا عليه بالأولية تخييرًا: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى} ٢

هذا، وقد أشار إلى أدهم هذا الزمخشري في تفسيره فقال: "وهذا التخيير منهم، استعمال أدب حسن معه، وتواضع له وخفض جناح، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم، وكأن الله - عز وعلا- ألهمهم ذلك، وعلم موسى - صلوات الله عليه- اختيار إلقاءهم أولًا، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكاييد السحر، ويستنفذوا أقصى طاقتهم ومجهودهم. فإذا فعلوا: أظهر الله سلطانه، وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقتة، وكانت آية نيرة للناظرين ، وعبرة بينة للمعتبرين" ٣

وبدوره، فقد جعل موسى الإلقاء بتقديمهم عليه لأمرين اثنين: الأدب مع المقابل بالأدب، لأنه صاحب الأرض، الضان بنفسه أنه أكثر خبرة في السحر - كما يظنون- والوقوف على صنعهم - قوة وضعفا- حتى يسدد رمية وإلقاءه.

وهذا دليل لحنه وقوة ذكائه، ليكون الغالب في التواصل: {قَالَ الْقَوَاءُ} و{قَالَ بَلْ الْقَوَاءُ} وكان الإلقاء- ساعتئذٍ- كان في جهة الناس، ليلفتوا أذهانهم إلى قوة ما صنعوا، فجاء التعبير ب: {فَلَمَّا الْقَوَاءُ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ، وَاسْتَرْهَبُوهُمْ، وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ} ٦

١ [الأعراف: ١١٥]

٢ [طه: ٦٥].

٣ ره: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٧٣/٣)

٤ [الأعراف: ١١٦].

٥ [طه: ٦٦].

٦ [الأعراف: ١١٦].

أما في جهة موسى: فكان مختلفًا؛ إذ كان تخييلًا: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} وهو كبشر يعتريه ما يعترى البشر: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} والخوف الذي هو طبع الجبلية البشرية، لم يملك موسى، ولم يحط به، بل بقي ثابت الجأش. لأن {فَأَوْجَسَ} من (إيجاس الخوف) : إضمار شيء منه. وكذلك توجس الصوت: تسمع نبأة يسيرة منه. و«النبأة»: الصوت الخفي.

ويحتمل أن لا يكون الخوف على نفسه، فهو متمكن مكين بما ألقاه ربه في رُوعه، وإنما خاف أن يخالج الناس شكًا، فلا يتبعوه^٣.

ويشرح الشعراوي:(الإيجاس) بقوله: وهو تحرك شيء مخيف في القلب لا يتعدى إلى الجوارح . فإن تعدى إلى الجوارح يتحول إلى عمل نزوعي، كأن يهرب أو يجري، فالعمل النزوعي يأتي بعد الإحساس الوجداني^٤.

فلم يلبث أن هبط الوحي عليه بالتأييد، والإطاحة بهذا الخوف المتوجس، مطمئنه بقوله: {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} الغالب المواصل نحو الهدف. ثم أردفه ربه بالأمر: {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}- {وَصَنَعُوا هَاهُنَا بِمَعْنَى (زُورُوا وافتعلوا).

واتضح بلا أدنى شك، أنه: وحي بمشيئة ربه الذي أرسله، وتحقق بهذا الإلقاء نجاح التواصل بالخطوات التالية:

١- التلقف^٥ الذي أبطل ما صنع السحرة: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} و{وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}٢

١ [طه: ٢٠].

٢ [طه: ٦٧]-

٣ ره: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٧٤)

٤ ره: تفسير الشعراوي (٩٣١٧/١٥)

٥ لِقَفْ يَلْقَفُ الكُرَّةَ وَغَيْرَهَا: مسكها. أخذها بسرعة أو تناولها مرميًا إليها" {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا}: تلهم وتبتلع بسرعة". معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٨٠٢)

- ٢- ظهور الحق ودمغ الباطل: {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}٣
- ٣- غلبة موسى وصغار السحرة ومن كان يتبعهم: {فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ}٤
- ٤- والنتيجة الأعظم بسجود السحرة: {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ}٥ و{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}٦
- ٥- التواصل الأكمل بإيمان المقابل، واتحاد فكره مع مواصلته عن قناعة، لا إكراه: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}٧
- فتحقق التواصل في هذه المرحلة بين كيانيين، بوصول الفكرة والمنهج، فصارا كيانًا واحدًا في الفكر والمسلك.

تهديد المترنج

ولما أبصر تواصلهم الإيجابي مع موسى، سعى للحيلولة بين المتواصلين، فلوّح بالتهديد- وهو يترنج، فرفع عقيرته^٨ أمام الملأ، وأرادَ بذلك التلبّيس على قومه، كيلا يعتقدوا: أنهم آمنوا عن بصيرة وظهورِ حق: {قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}٩ إذ المعنى: إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر، قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء، قد تواطأتم على ذلك

١ [الأعراف: ١١٧]

٢ [طه: ٦٩]

٣ [الأعراف: ١١٨]

٤ [الأعراف: ١١٩]

٥ [الأعراف: ١٢٠]

٦ [طه: ٦٩، ٧٠]

٧ [طه: ٧٠]

٨ صَوْتَهُ.

٩ [طه: ٧١]

لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط، وتسكنوها بنى إسرائيل^١. فلم يعد متوازنًا فجنح إلى منطق التهم، وقصده التمويه على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان، لكنه لم يدرك أنه مكشوف عند من به مسكة من عقل، وخوفا على مراكزهم عنده أن تزول، بقوا على الموالة.

ثم هدد وتوعد المنشقين عنه المتواصلين مع موسى، بعد ما أعلن الذريعة: {فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأُلْصَبِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى^٢}

ورد عليه بقوة، مصرحًا بذريعته غير السوية: {قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى^٣}

{قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ^٤}

كما هدد وتوعد موسى وقومه بإشارة من ملئه: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْبُيُوتَ قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ^٥} ولم يجد نفعًا ذلك التهديد المزدوج، وأمسى صرخة في واد، وظهر الحق وزهق الباطل.

قطف الثمرة

وما من قارئ قصة موسى مع فرعون، إلا تأثر بمنهجية تواصله مع الناس، لا سيما من سبر أغوار مقاصدها، واستنبط حكمها، إذ تحولت لغة التواصل فيها

^١ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١٤١/٢)

^٢ [طه: ٧١]

^٣ [طه: ٧٢، ٧٣]

^٤ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦]-

^٥ [الأعراف: ١٢٧]

إلى مَعْلَم يتفق عليه الناس، فُرض على الواعظين سلوكه، وانضبط به كل من يعظ الناس حاكمين أو محكومين، ومن حاد عنه كان مجافيا مقاطعا، وقد تجسدت هذه المنهجية في قصة كان فيها الخليفة الرشيد الفقيه معلماً ومرشداً.

إذ يروى: أن الرشيد كان بالرقّة بعدما شَخَص من بغداد، فخرج يوماً إلى الصيد، فعرض له رجل من النُّسّاك، فقال: «يا هارون! اتق الله»

فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك: «خذ هذا الرجل إليك حتى أنصرف».

فلما رجع دعا بغدادائه، ثم أمر أن يطعم الرجل من خاصّ طعامه.

فلما أكل وشرب دعا به فقال: «يا هذا أنصفي في المخاطبة والمسألة»

قال: «ذاك أقلّ ما تحبّ»

قال: «فأخبرني أنا شرّ وأخبث أم فرعون؟»

قال: «بل فرعون»

قال: «أنا ربُّكم الأعلى»

وقال: «ما علّمت لكم من إلهٍ غيري»

قال: «صدقت»

قال: «فأخبرني: فمن خير؟ أنت أم موسى بن عمران؟»

قال: «موسى بن عمران كليم الله ووصفيّه اصطنعه لنفسه وائتمنه على

خلقه»

قال: «صدقت. أفما تعلم: أنّه لما بعثه الله وأخاه إلى فرعون، قال لهما:

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا { وهذا وهو في عتوّه وجبريّته على ما قد علمت.

وأنا بهذه الحال الذي علمت، أوْدَى أكثر فرائض الله عليّ، ولا أعبد أحدا

سواه، أقف عند أكثر حدوده وأمره ونهيّه، فوعظتني بأغلظ الألفاظ وأبشعها،

وأخشن الكلام وأفظعه، فلا بأدب الله تأدّبت، ولا بأخلاق الصالحين أخذت، فما

كان يؤمنك أن أسطو بك، فإذا أنت قد عرّضت نفسك لما كنت عنه غنياً»

١ [طه: ٤٥] فذكر المفسرون أنّه أمرهما أن يكتيها.

فقال له الزاهد: «أخطأت - يا أمير المؤمنين وأنا أستغفر الله»

قال: « غفر الله لك»

وأمر له بعشرين ألف درهم، فأبى أن يأخذها، وقال: « لا حاجة لي في المال،

أنا رجل سائح»

فقال هرثمة، وزجره: «تردد على أمير المؤمنين- يا جاهل!- صلته؟»

فقال الرشيد: «أمسك عنه»

ثم قال له: « لم نعطك هذا المال لحاجتك إليه، ولكن من عادتنا: ألا يخاطب

أحد الخليفة، ليس من أوليائه، ولا من أعدائه، إلا وصله ومنحه، فاقبل من صلتنا

ما شئت، وضعها حيث أحببت»

فأخذ من المال ألفي درهم، وفرّقها على الحجاج، ومن حضر بالباب^١.

^١ تجارب الأمم وتعاقب الهمم (٢٢/٤) تاريخ الطبري وصلة تاريخ الطبري (٣٥٨/٨)

المصادر، والمراجع

* القرآن الكريم.

- معجم اللغة العربية المعاصرة- د أحمد مختار عبد الحميد عمر (١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل. الناشر: عالم الكتب. الطبعة (١)، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م. ج: ٤ (٣ ومجلد للفهارس).
- سنن سعيد بن منصور- أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (٢٢٧هـ) المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي. الناشر: الدار السلفية - الهند. الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م الأجزاء: ١*٢
- العقد الفريد- أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (٣٢٨هـ) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. ط: (١) ١٤٠٤ هـ الأجزاء: ٨
- الكشكول- محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الهمداني، بهاء الدين (١٠٣١هـ) المحقق: محمد عبد الكريم النمري. ن: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. ط (١) ١٤١٨هـ-١٩٩٨م. الأجزاء: ٢
- الخصائص- أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: الرابعة عدد الأجزاء: ٣
- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار- جار الله الزمخشري توفي ٥٨٣ هـ الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ عدد الأجزاء: ٥
- مسند الإمام أحمد بن حنبل- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠١ م
- الأدب المفرد- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (٢٥٦هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩ عدد الأجزاء: ١
- مسند أبي يعلى- أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (٣٠٧هـ) المحقق: حسين سليم أسد الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق. ط: (١) ١٤٠٤ - ١٩٨٤ الأجزاء: ١٣
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ) الناشر: دار التونسية للنشر - تونس. سنة النشر: ١٩٨٤ هـ عدد الأجزاء: ٣٠ (والجزء رقم ٨ في قسمين)
- ديوان طرفة بن العبد- طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو الشاعر الجاهلي (٥٦٤م) ت: مهدي محمد ناصر الدين. الناشر: دار الكتب العلمية. ط: (٣) ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢ م. جز: ١
- مجمع الأمثال- أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (٥١٨هـ) المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد. الناشر: دار المعرفة - بيروت، لبنان عدد الأجزاء: ٢
- في ظلال القرآن. الشيخ الشهيد / سيد قطب إبراهيم.. دار الشروق. القاهرة عدد الأجزاء: ٦
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة- عبد المتعال الصعيدي (١٣٩١هـ) الناشر: مكتبة الآداب. الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م عدد الأجزاء: ٤

- مفتاح العلوم- يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ) ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م عدد الأجزاء: ١
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي. شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (١٠٦٩هـ). دار صادر - بيروت. عدد الأجزاء: ٨
- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (المتوفى: ٧٤٣هـ) مقدمة التحقيق: إباد محمد الغوج. القسم الدراسي: د. جميل بني عطا. المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم. الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣ م عدد الأجزاء: ١٧ (الأخير فهراس)
- محاسن التأويل. محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ) المحقق: محمد باسل عيون السود. الناشر: دار الكتب العلميّة - بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير. أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (٦٠٦هـ) ن: دار إحياء التراث العربي - بيروت. ط (٣) ١٤٢٠ هـ
- لباب التأويل في معاني التنزيل. علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي أبو الحسن، المعروف بالخازن (٧٤١هـ) تصحيح: محمد علي شاهين ن: دار الكتب العلمية - بيروت. ط (١) ١٤١٥ هـ
- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) المحقق: د. مجدي باسلوم. ن: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان ط (١) ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م عدد الأجزاء: ١٠
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي (١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية. ن: دار الكتب العلمية - بيروت. ط (١) ١٤١٥ هـ ج: ١٦
- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (٩٨٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت
- تفسير الشعراوي. محمد متولي الشعراوي ت (١٤١٨هـ) ن: مطابع أخبار اليوم. الأجزاء: ٢٠
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (٥٣٨هـ) الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة: (٣) - ١٤٠٧ هـ الأجزاء: ٤